عبد المنعم سليم جبارة

رجل لا يحب الضجيج

كنت كلما دخلت عليه مكتبه أداعبه بالآية الكريمة «وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ» (المطففين:٢٧).. وكان يبتسم ابتسامة هادئة، ولكنها تعبر عن فرح عميق، فقد رزق بفتاة سماها «تسنيم» بعد ولد سماه «زياد». كان اسم «تسنيم» نادرًا، ولكنه اسم قرآني جميل صارت صاحبته اليوم عروسًا في الدراسات العليا، بعد أن تجاوزت العشرين.

مر الزمان سريعًا مذ قابلته لأول مرة في مقر مجلة «الدعوة» بالتوفيقية عام ١٩٧٦، كان هادئ السمت، قليل الكلام، يهتم بما هو مفيد، لا يحفل بالثرثرة، ولا يبدي انفعالاً، ولكنه يتجه نحو العمل فقط، وحوله كوكبة من الشباب، صاروا اليوم مبرزين في أعمالهم؛ صلاح عبد المقصود، وكيل نقابة الصحفيين، بدر محمد بدر مدير تحرير آفاق عربية، أحمد عز الدين، مدير تحرير «المجتمع» وغير هؤلاء من جيلهم والجيل التالي بعدهم أعداد أخرى حققت نجاحات في ميدان عملها الصحفي والثقافي والفكري، تعلمت من «عبد المنعم سليم جبارة» وعملت معه.

تعرفت إليه بوساطة صديقي الراحل «جابر رزق» وكانا يديران مجلة «الدعوة» في ظل الأستاذ «عمر التلمساني» والأستاذ «صالح عشماوي» -رحم

الله الجميع- وكانت «الدعوة» آنئذ تصدر شهرية، وتغطي مع مجلة «الاعتصام» التي كنت محررًا بها نشاط الحركة الإسلامية، وتعبران معًا عن رؤية إسلامية لأحداث تلك الفترة التي أعقبت حرب رمضان، والإفراج عن المعتقلين من التيار الإسلامي، والسماح بهامش من الحرية التعبيرية.. كان لي شرف الكتابة في الدعوة، وخاصة بعد إعلان مبادرة الرئيس الراحل «أنور السادات» بزيارة القدس المحتلة، والتفاوض مع الكيان النازي اليهودي الغاصب في فلسطين المحتلة..

توطدت معرفتي بعبد المنعم سليم جبارة بعد ذلك، وكانت هناك مفارقة طريفة، وهي أننا تزوجنا في عام واحد (عام ١٩٧٨م)، ثم تعاونت معه فيما بعد حين أعيد إصدار مجلة «لواء الإسلام» التي صار رئيسًا لتحريرها، وكنت أتولى تحرير القسم الأدبي فيها، حتى سافرت إلى العمل بالخارج، وجاءت حرب الخليج الثانية (احتلال الكويت من جانب العراق)، فأغلت «لواء الإسلام» تحت ضغط الأحداث ومضاعفاتها، فلم أقابله إلا لمامًا، ولكني كنت أتابع مقالاته المستمرة والدءوب في العديد من المجلات والصحف، المجتمع، الأحرار، الشعب، الحقيقة، آفاق عربية، وغيرها، وكان فيما يكتبه ملتزمًا بالرؤية الإسلامية النقية التي لا تتأثر بالدعاية السائدة، ولا تنخدع بالأقوال التي تصدر عن خصوم الإسلام، كان يرى الأشياء كما يوجب الإسلام أن ترى، لا كما يريد الآخرون أن نراها. ثم إنه يصوغها في عبارات علمية دقيقة بعيدة عن الانفعال العاطفي أو الهجاء السياسي.. فقد كان يرصد ما يراه، ثم يبدي رؤيته الإسلامية في وضوح، لا يراوغ ولا يخاتل ولا ينافق، وكانت مقالاته في معظمها تتجه نحو معالجة القضية الفلسطينية ومستجداتها على الساحة السياسية والعربية، منطلقًا من فهم محدد يؤمن أن الجهاد هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين واستعادة بيت المقدس.

لقد تخرج عبد المنعم سليم جبارة في كلية الآداب، وكان تخصصه في «الجغرافيا» وهو ما ساعده في تحليلاته السياسية على استيعاب أحوال العالم الإسلامي، بل العالم كله، فقد كانت الدنيا تحت ناظرية يعرف تضاريسها الجغرافية كما يعرف تضاريسها السياسية، ولذا جاءت كتاباته عميقة، تشير إلى وعي حاد بما يدور على خريطة العالم.

وكانت تجربته الإنسانية زاخرة وعامرة، مع قسوة بعض جوانبها ومرارته وبشاعته، فقد ولد في الثاني والعشرين من أكتوبر عام ١٩٣٠ لعائلة ميسورة في مركز فاقوس بمحافظة الشرقية، ومكنه المستوى المادي المرتفع لأسرته من دخول جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا).. وانضم وهو طالب في الجامعة إلى جماعة الإخوان المسلمين، وشارك في عمليات الفدائيين ضد المستعمرين الإنجليز بمنطقة قناة السويس في أوائل الخمسينات، واعتقل عام ١٩٥٥ وظل بالمعتقل حتى أفرج عنه عام ١٩٧٤ بعد أن قضى نحو عشرين عامًا ذاق فيها مرارة السجن وبشاعة التعذيب وقسوة الظلم، وقد عبر «نجيب الكيلاني» - رحمه الله- عن هذه المحنة في روايته المؤثرة «رحلة إلى الله»، وكان صديقًا لعبد المنعم سليم ورفيقًا له في السجن بعد محاكمات ١٩٦٥. وقد أشار «نجيب الكيلاني» إلى علاقته بعبد المنعم مذ كانا طالبين في الجامعة، الأول كان طالبًا في الطب، والآخر في الآداب، وسجلها في كتابه الضخم الذي ترجم فيه لنفسه «لمحات من حياتي»، وأذكر أنني حين ذكرت له بعض الوقائع التي وردت في الكتاب، وحكاها لي نجيب شفاهة، ضحك، ولم يعلق، كعادته، وكأنه يستحي أن يشير إلى ما تعرض له في المعتقل، على العكس من صديقه «جابر رزق» الذي سجل ما جرى وتحدث بصراحة بالغة، كان الهدف منها كشف الممارسات الوحشية لبعض البشر الذين ماتت قلوبهم، وهو ما عبر عنه أيضا الكاتب الراحل «مصطفى أمين» في كتابه المشهور «سنة أولى سجن» وأشار فيه إلى ما أصاب

المعتقلين السياسيين من تعذيب بشع!

لقد خرج «عبد المنعم سليم» من غياهب الظلمات وهو في الرابعة والأربعين من العمر، لم يتزوج، ودون وظيفة، فعمل في وزارة التربية والتعليم موجهًا بالتعليم الثانوي، وفي عام ١٩٧٦ انضم إلى مجلة «الدعوة»، ثم أعير إلى الإمارات العربية المتحدة ليعمل في مجال التدريس، ويؤسس مع آخرين مجلة «الإصلاح»، ثم ترك الإمارات وعاد إلى مصر بعد سنوات.

الميزة الرئيسية التي تميز عبد المنعم سليم، هي أنه لا يحب الضجيج، بمعنى أنه يريد أن يخدم دينه ودعوته إلى الله في صمت، فلا يسعى إلى الأضواء، ولا يجري وراء البريق، ولا يستشعر «الأنا» التي تعبر عن حب الذات أو النفس، إلا في مواقف التضحية والبذل، حينئذ يقدم نفسه وروحه، في صمت ودون ضجيج. إن بعض العاملين في مجال الحركة الإسلامية والدعوة إلى الله تتسلل إليهم آفة «النرجسية» أو «حب الظهور» أو «الانتفاخ الكاذب». ولكن رجلنا كان متواضعًا، أو حريصًا على التواضع الذي يدخله في دائرة الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا. هو يريد أن يقول كلمته في هدوء ثم يمضي، وكأنه لا يريد أن يعرف أحد أنه هو الذي قال، ولعل ذلك كان وراء كتابته مئات المقالات بأسماء مستعارة، حيث كانت بعض المطبوعات تحمل له أكثر من مقالة، فيوقع بأسماء مثل: أبو زياد، أبو طارق، د. سيد الفضلي، د. حمد عبد الحميد البنهاوي وغيرها... وأذكر أن كاتبًا يحمل اسمه – وهو من تيار آخر- احتج كتابة بأن تشابه الاسمين يوقع صاحبنا في مأزق مع التيار الذي ينتمي إليه، فأضاف الراحل الكريم إلى اسمه لقب العائلة «جبارة» دون يجد في ذلك غضاضة، ليفرق الناس بين الاسمين.

إن تواضع «عبد المنعم سليم جبارة» في الحياة والدعوة الإسلامية، يجعله نموذجًا للداعية الإسلامي، الذي تمكن الإيمان من قبله، فلم تشغله زخارف

الـدنيا ولا عرضـها الزائـل، وفي الوقـت نفسـه يقـدم درسًـا حيًـا وبليغًـا إلى «المغرورين:» أو «السفيانيين» الذين يدورون حول أنفسهم وذواتهم، ويتناسون أن الخدمة في ميدان الدعوة الإسلامية تقتضي التواضع أو إنكار الذات، ليكون عملهم خالصًا لوجه الله، وأشهد أني مـا رأيـت الرجـل يومًـا يضـع نفسـه في مستوى فوق مستوى المسلم البسيط الذي يرجو رحمة ربه وعونه. مع أنـه كـان في مواقع تتيح له أن يتيه وينتفش ويزهو ويفاخر.. ولكنه كان ينظر إلى الآخـرة متخلقًا بأخلاق الإسلام والسلف الصالح.

ولعل ذلك كان من وراء التكريم الإلهي له، وهو التكريم الذي تبدي عند وفاته، فقد ظل واقفًا على قدميه، يصلي ويتهجد ليلـة السـابع والعشـرين مـن رمضان الماضي، وهي الليلة المباركة التي يرجح العلماء أن تكـون ليلـة القـدر، فقد اختاره الله وهو يصلي، وتم دفنه يوم الجمعة، ورأى من رافقوه على مثـواه معالم كرامات تدل على أنه من المقبولين إن شاء الله.

هذا الرجل الطيب والداعية الذي ينكر نفسه، كـان مثـالاً للمسـلم الـذي يعرف القناعة والرضا بقدر الله، تقول عنه زوجته: «كان زوجي نسمة لطيفة في حياته ومماته، كان معلمًا منذ أول لحظة ارتباطنا، منذ أن ارتضـينا هـذا الطريـق نقطعه معًا إلى الجنة، فبدأنا بشقة صغيرة في شبرا الخيمة، ولم أشتر فستان زفـاف بل استعرت فستان أختي، وعقدنا زواجنا بمسجد صلاح الدين بالمنيل في حفـل عائلي صغير، ثم فتحت علينا الدنيا أبوابها، فتدفق المال، ولكن كل هذا كان في يده لافي قلبه، لم يغيره فيض العطاء بعد طول الحرمان لأن قلبه قد تعلـق بأمـل آخر.. الجنة، ومع حياته الزاخرة لم يكن يذكر ما حـدث لـه إطلاقًـا، بـل كنـت أعرف من الكتب ولا أحدثه فيه، كان يشعر بأن ما يقدمـه لدعوتـه هـو كنـزه، فكان أحرص ما يكون عليه وعلى ألا يطلع عليه أحد، فلا اذكر أنه روى لنا ما حدث معه في السجن إلا مرة واحدة كنا نشكو من شـدة الحـر، فشـرد ببصـره

قليلاً ثم قال: سبحان الله، لقد كانت تأتي على الإخوان أيام في سجن قنا نظن فيها أن الموت يكاد ينالنا من شدة الحر. وإذا بالمولى عز وجل يرسل ما يلطف به الجو فيخفف عنا والجنود حولنا في ذهول. وحينما كنت أرى إصابات جسده من أثر التعذيب وأسأله عنها كان ينكر بشدة ويتهرب من أسئلتي...».

وأكتفي بهذا القدر من شهادة الزوجة الصابرة، وما تضمنته من حفظه للقرآن الكريم ودأبه على قراءته وتلاوته باستمرار... لأقول: إن «عبد المنعم سليم جبارة» يقدم نموذجًا لخدمة الإسلام كان يعمل في صمت ودون ضجيج ودون رياء أيضا... رحمه الله، وجعل مستقره في الفردوس الأعلى..

عبد الحميد جودة السحار

صاحب السيرة النبوية

كانت مبادرة طيبة ومفاجئة من إذاعة «صوت العرب» أن تطلب مني الحديث في برنامجها اليومي الجميل «صباح الخير يا عرب» عن الكاتب الراحل «عبد الحميد جودة السحار». كانت المبادرة طيبة لأن السحار من جيل القصصين والروائيين البناة الذين خدموا الأدب والثقافة في فترة الازدهار التي عرفها القرن العشرين، أعني أواسط هذا القرن، وكانت خدمته جليلة وعظيمة في سياقها ونتائجها، لذا فهو يستحق التكريم ليس من خلال دقائق يذيعها برنامج في فترة الصباح الباكر، ولكن من خلال احتفال يليق بواحد من البناة العظام. أما مفاجأة المبادرة فقد كانت تعبر عن صحوة غير متوقعة، كان صوت العرب صاحب الفضل فيها، بعد تسع وعشرين عامًا على رحيل الرجل الذي أهملته الحياة الثقافية والأدبية، ولم تعطه ما يستحق من تقدير وتكريم، صحيح أن هناك بعض الكتب والدراسات القليلة التي تناولت مسيرة الرجل وفكره وأدبه، مثل كتاب «مأمون غريب» حول التوجه الإسلامي في كتاباته، وكتاب «عبد المنعم صبحي» حول «السينما في أدب السحار»، وكتاب «محمد جبريل» وبعض مقالاته حول السيرة النبوية في أدبه، وجهوده الأدبية في الرواية والقصة، وكتاب »صفوت زيد» حول «التيار الإسلامي في قصص السحار»، وبعض ما كتبته عنه حول القصص والروايات التاريخية التي كتبها السحار وضمنتها بعض

كتبي فضلاً عن مقالات قليلة كتبها آخرون... ولكن هل يكفي هذا التقدير لرجل من البناة العظام في تأسيس الفن الروائي والقصصي، وخدمة السيرة النبوية الشريفة، والتاريخ الإسلامي، والسينما المصرية الهادفة: إنتاجًا وتأليفًا وإدارة؟ لقد أيقظت مبادرة صوت العرب كثيرًا من الأشجان، وحركت قلمي لأكتب هذه السطور عن رجل أهملته النظرة «الفرعونية» التي ينظر بها المصريون إلى زعمائهم وأدبائهم وأعلامهم، فيقدسون واحدا فقط في كل تخصص، أو كل مجال ولا ينظرون إلى غيره مهما كان متفوقًا، أو صاحب جهد مهم وكبير. إنها نظرة لا تعرف التعددية، ولا تعترف بالآخر المخالف أو المغاير، وتعمل على تأصيل «الواحدية» أو تألية «الزعيم»، وهو ما يتنافى مع حركة الحياة الفاعلة والمنتجة، فضلاً عن العدل أو الموضوعية التي تفترض أن يكون المبدعون أولادا للوطن كله، ومطلوبين جميعًا للقراءة والتلقي، لا إقصاء لأحد، ولا نفي لفريق.

انظر مثلاً ما يكتب عن «نجيب محفوظ»، وخاصة منذ حصل على جائزة نوبل. إنه محيط هادر من الكتابات التي تتناول كل حركة وسكنة في حياة الرجل، وصار هناك ما يشبه «الوكالة» المعنية بشئون تسويق الرجل وأخباره وأسراره، وهذه «الوكالة» تشبه «كهنة آمون» في التاريخ المصري القديم لها قدسيتها وعصمتها وهيبتها في قيادة الحديث عن الرجل واحتكار تاريخه وحاضره ومستقبله، وبناء عليه فلا يجوز أن يكون هنالك حديث عن أحد آخر غير نجيب محفوظ ولا يجوز لأحد آخر غير الوكالة والمنتسبين إليها، والمرضى عنهم منها، أن يتناولوا الرجل من قريب أو بعيدا!.

إن «عبد الحميد جودة السحار» يعد صاحب الفضل الأول -بعد الله- في نشأة نجيب محفوظ الأدبية ونموه الأدبي وتعريف القراء به حتى الآن، فقد أسس السحار، بمصاغ زوجته الذي باعه، لجنة النشر للجامعيين، التي شاركة في

تأسيسها: محمود البدوي، وعادل كامل، ومحمد عفيفي، وإبراهيم المصري، ووداد سكاكيني، والشيخ كامل عجلان، ووديع فلسطين، وكان باكورة إنتاج هذه اللجنة هو نشر أعمال نجيب محفوظ الأولى، وبعد أن آلت اللجنة إلى السحار وحده فإنه أسس «مكتبة مصر» التي صارت اليوم من أهم دور النشر وأعرقها، وقد واصلت نشر أعمال نجيب محفوظ حتى اليوم، كما نشرت العديد من الكتب والدراسات التي دارت حول أدبه ورواياته[1].

لقد كان السحار ونجيب محفوظ وعلي أحمد باكثير ومحمد سعيد العريان ومحمد عبد الحليم عبد الله ومحمود البدوي وعادل كامل، من أبرز القصصيين والروائيين البناة، الذين انضجوا فن القصة القصيرة، والرواية العربية، وعن طريقهم قرأ الناس التاريخ المصري القديم والتاريخ العربي والإسلامي، والواقع الاجتماعي المصري منذ ثورة عرابي حتى هزيمة ١٩٦٧، بأساليب مختلفة وطرق متنوعة، وكان هؤلاء البناة مخلصين لأمتهم وتراثها ولغتها العربية الفصحى، فضلاً عن حلمهم الدائم والمستمر بوطن حر وأمة قوية ومستقبل أفضل يمتلئ بهجة وقوة وانتصارًا.

ولد السحار في باب الشعرية عام ١٩١٣، وعاش ما يقرب من واحد وستين عامًا، حيث انتقل إلى رحمة مولاه في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٩٧٤. وقد تخرج السحار في كلية التجارة وإدارة الأعمال عام ١٩٣٧، وظهرت باكورة أعماله الأدبية في مجلتي «الرسالة» و «الرواية»، ثم تقدم بروايته في «قافلة الزمان» إلى مسابقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مع «محمد سعيد العريان» الذي تقدم بروايته «على باب زويلة»، ونجيب محفوظ الذي تقدم بروايته «خان الخليلي»، وقررت اللجنة منح جائزة المسابقة مناصفة للعريان ونجيب. وقد دفعت هذه النتيجة السحار إلى الإصرار على المزيد من تجويد الفن

(١) بعد وفاة نجيب محفوظ قبل عامين، اتفقت أسرته مع دار نشر أخرى لطبع أعماله.

القصص والروائي، لقد كتب «في قافلة الزمان» مستلهما تاريخه الأسرى والعائلي، من أواخر القرن التاسع عشر حتى قبيل الحرب العالمية الثانية، وهي المرحلة التي شهدت تخرجه من الكلية، وبداية ممارسته للحياة العملية، حيث عمل مترجمًا بمخازن سلاح الطيران، وامتدت به الحياة ليكون رئيسًا للشركة العامة للتجارة بوزارة الاقتصاد، ثم رئيسًا لمجلس إدارة شركة السينما التابعة لوزارة الثقافة عام ١٩٦٨ حتى إحالته على التقاعد عام ١٩٧٣م.

بعد الرواية الأولى، كتب السحار رواية «الشارع الجديد» حول الفترة التي مرت بها مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى يولية ١٩٥٢، ثم رواية «الحصاد» التي عالجت الفترة من يولية ١٩٥٢ حتى قرارات الإصلاح الزراعي، معبرًا عن أحوال الفلاح المصري وظروفه المأساوية، ثم رواية «السهول البيض» التي عبرت عن حركة المجتمع المصري في ظل الغزو الثلاثي لمصر عام ١٩٥٦.

اهتم السحار بالتاريخ، فكتب – مثلما فعل نجيب محفوظ وغيره- بعض الروايات عن التاريخ المصري القديم والوسيط والحديث.

لقد قدم رواية «أحمس بطل الاستقلال» عن مصر القديمة، ثم كتب رواية «أميرة قرطبة» عن الأندلس ونذر العاصفة التي ذهبت به فيما بعد، ورواية «قلعة الأبطال» عن مصر الحديثة في مواجهة الاحتلال الإنجليزي والاستبداد الظالم.

بيد أن التاريخ الذي سيطر على وجدان السحار، هو التاريخ الإسلامي، الذي احتشد له، وأعطاه الكثير من اهتمامه وعمره، لقد كتب عن بلال مؤذن الرسول، وأبي ذر الغفاري، ثم كانت الملحمة الروائية الكبرى التي ضمت عشرين جزءًا، كل جزء يمثل مجلدًا كبيرًا، يرصد فيها تاريخ الإسلام منذ آدم عليه السلام، حتى وفاة الرسول ﷺ في أسلوب قصصي شائق وسلس، قلما نجد مثيلاً له، اللهم في ملحمة عمر بن الخطاب التي كتبها «على أحمد بالكثير» في

عشرين جزءًا مماثلة أيضًا.

لقد نشأ السحار في أسرة تعرف الحلال والحرام، وتنحاز إلى الإسلام دينا، ومنهجًا وسلوكًا، فتشبع وجدانه بروح الدين، وانعكس ذلك التشبع في أعماله وعلاقاته.. سواء في الأدب أو أو التجارة أو السينما. كان السحار هو الذي يفكر بعقلية تجارية ناجحة بين زملائه في لجنة النشر للجامعيين أو جيل البناة من الروائيين والقصصيين، وقد ساعدته هذه العقلية على النجاح في مجال النشر، ثم مجال السينما الذي انفرد فيه بالإنتاج. لقد شارك زملاءه في كتابة السيناريو والحوار، فضلاً عن القصة، ولكنه كان أشجعهم وأقدرهم على خوض مجال الإنتاج السينمائي، وهو ما أهله ليكون رئيسًا للشركة الرسمية للسينما، ثم يسهم هو في إنتاج مجموعة كبيرة من الأفلام، ما زالت تلقى رواجًا واستحسانًا بين الجمهور، حتى الأجيال الجديدة، تجد فيها فنا يمتعها، وقيمًا إنسانية راقية ومفارقات تجعلهم يضحكون من القلب في زمن عز فيه الضحك من القلب. من ينسي أفلام: أم العروسة، مراتي مدير عام، الحفيد، درب المهابيل، شياطين الجو، رسالة إلى الله، النصف الآخر، ألمظ وعبده الحامولي، فجر الإسلام؟

لقد كتب السحار معظم قصص هذه الأفلام، أو شارك في كتابة مشاهدها وحوارها، وتمكن من فن صناعة السينما تمكنا أهله ليكون رئيس تحرير مجلة «السينما» التي أصدرتها وزارة الثقافة في الستينيات، ولعلها كانت أول مجلة تصدر خصيصًا لفن السينما في بلادنا.

لقد وقف بعض النقاد من أدب السحار وكتاباته موقفًا غريبًا، بسبب توجهه الإسلامي، وزعموا أن ذلك التوجه أفسد فنه. وأنه جعله ينظر للأشياء نظرة أحادية «أسود وأبيض»، وهذا موقف غير علمي، لأن السحار –الذي نجح في الكتابة للسينما بما تحمله من تفاوت وتدرج وتلون في السلوك والحياة –كان

واعيًا لحركة الإنسان، والضعف الإنساني، والتطور الإنساني الذي يشمل الأشخاص والحياة جميعًا.

عقب هزيمة ١٩٦٧، والناس يائسون محبطون، كان السحار -فيما أذكر- أول من خرج على الناس بكتاب صغير: «وعد الله وإسرائيل» - الذي أثار جدلاً كبيرًا - يبشرهم بالنصر وهزيمة العدو، وقد توفي بعد أن شاهد النصر، بشهور قليلة، تاركا أكثر من خمسين كتابًا، وتراثًا مضيئًا ومبهرًا يحتاج إلى إنصاف.

عبده بدوي

رحيل الكلمات الغضبى!

لم أستطع رؤيته منذ سنوات، وهو يعاني متاعب صحية، لم أحب أن أراه وهو يعاني، وخاصة أن المعاناة امتدت وتنوعت، وحين يكون الذي يعاني شاعرًا رقيقًا -يجرحه النسيم كما يقولون- فإن الأثر الذي تخلفه المعاناة يكون أكبر وأعمق. ومن المؤسف أن أحدًا في الدولة لم يحاول أن يقف إلى جانب الشاعر الذي أصدر أكثر من عشرة دواوين، وعشرات الكتب النقدية والأدبية، وكان ذات يوم ملء السمع والبصر في وزارة الثقافة والحقل الثقافي.. في الوقت الذي نجد فيه الصيحات تتعالى حين يمرض أو يدعي المرض، بعض أشباه الأدباء هنا وهناك، فتتحرك الجهات المعنية وتقرر علاجًا في الداخل أو الخارج، أو تمنح مالاً للمساعدة على العلاج. أما شاعرنا، فإن طبيعته أو حياءه منعه أن يتحدث عن نفسه، أو يطلب من أحد!

لقد كان «عبده بدوي» رئيسًا لتحرير مجلة اسمها «الشعر»، ظل يسعى حتى أصدرها عام ١٩٧٦، عن مجلة «الإذاعة والتلفزيون»، بعد أن ما طالت جهات أخرى في إصدارها، وظل يحررها لأكثر من عشر سنوات دون مقابل أو مرتب، اللهم إلا المكافأة التي تصرف نظير ما ينشره فيها مثله مثل غيره من الكتاب والشعراء، ومن خلال هذه المجلة، ظهرت دراسات غنية، وشعر جيد، وشعراء جدد. ومع ذلك، فإنه ظل يعاني ظروفا صعبة. ولم يشفع له جهده في

مجلة «الشعر»، أو في مجلتي «الرسالة» و «الثقافة» اللتين صدرتا في النصف الأول من الستينيات، وكان مديرًا لتحريرهما، كي يحظى بنوع من الاهتمام داخل الحقل الأدبي، فيقف من يعنيهم الأمر إلى جانبه.

على كل، فإن كبرياءه جعله لا يتحدث عن نفسه، أو يشكو حاله، وكان في كل الأحوال يواجه متاعبه بنفس مطمئنة راضية، ورغبة عارمة في العمل والإنتاج، وقبلهما القراءة والمتابعة لما يدور في الحقل الأدبي. وكان قد أخرج للناس قبيل رحيله، عبر المجلس الأعلى للثقافة، أعمال الشاعرة العراقية الكبيرة «نازك الملائكة»، مع دراستين طويلتين لأعمالها الشعرية، وأعمالها النثرية، وإن كان -كما حدثني حينها بريديًا- لم ير هذه الأعمال لسبب بسيط، وهو أنها لم تصل إليه!

وإذا كانت جوائز الدولة التقديرية، قد تجاهلته، مع أنها مُنِحتْ لآخرين من الأجيال التالية له، وللشعراء أو الأدباء الأقل منه مستوى وموهبة وكفاءة، فإنه واصل إنتاجه الشعري والأدبي، الذي بدأ مع موجه التجديد الحديثة في الشعر العربي، التي ترتبط إعلاميًا بذكر السياب ونازك والبياتي في العراق. وصلاح عبد الصبور في مصر.

لقد بدأ «عبده بدوي» بنشر أشعاره، وهو طالب، وأصدر أول دواوينه مبشرًا بطاقة من نور تنبئ عن شاعر واعد، يحتضن هموم قومه وأمته، ويقدم لغة شعرية جديدة، تجمع الجلال إلى الجمال، وتستفيد من معطيات التراث المضيء والثقافة المعاصرة، محلية وأجنبية، وهو ما عبر عن نفسه فيما بعد من خلال الرمز والصورة، والقصة القرآنية والأسطورة الإفريقية، والتاريخ الإسلامي وفنون الدراما، ولعله كان من السباقين والرواد حين حاول أن يقدم القصيد السمفوني، والأوبرا الشعرية، فضلاً عن المسرح الشعري.. ثم كانت مشاركته في التجديد الشعري من خلال شعر التفعيلة، حيث قدم أجمل قصائده

وخاصة في ديوانه «كلمات غضبي» الذي حمل ثورة ضارية ضد الاستبداد، والكلمات الزائفة، والرجال الجوف (كما سماهم إليوت)، وزوار الفجر، ومغتصبي كرامة الإنسان وأمنه، ولا أنسى بيتا قرأته في هذا الديوان يعبر عن الرعب والخوف اللذين عاشهما الإنسان المصري في بعض المراحل:

إني أعيش، الرعب يتبع خطوتي والخوف ينعس جفنه بدمائي!

كان «عبده بدوي» صاحب فضل كبير على الثقافة العربية المعاصرة، في التعريف بالشعر الإفريقي، ولعل هذا ما دفع «علي شلش» -يرحمه الله- كي يهدي إليه كتابه عن الأدب الإفريقي، الذي أصدرته سلسلة «عالم المعرفة»، فقد كان «عبده بدوي» مديرًا لتحرير مجلة «نهضة إفريقية» -التي كانت تصدرها وزارة الإرشاد والثقافة، وكان «عبد العزيز إسحق» رئيسًا لتحريرها، ومن خلالها، عرف القارئ المصري والعربي ما يتعلق بإفريقية المجهولة والمستعمرة -في معظمها- آنئذ- لدرجة أن البعض قال، لقد أصبحنا نعرف دبة النملة في إفريقية بفضل مجلة «نهضة إفريقية». وقد أغلقت هذه المجلة، مع المجلات الأخرى لأسباب لا مجال هنا لتناولها.

وقد استفاد «عبده بدوي» من الشعر الإفريقي استفادة كبيرة، حين ضمن شعره بعض الأساطير والحكايات الإفريقية، وهو ما لم يسبقه إليه أحد من المعاصرين فيما أعلم، وفي هذه الحكايات وتلك الأساطير لمحات إنسانية، تعبر عن نقاء الفطرة، وشوق الإنسان إلى الحرية والكرامة والعدل.

في قرية تسمى كفر الدفراوي، تقع ضمن مركز شبراخيت بحيرة، ولد في الخامس من يولية ١٩٢٧ طفل اسمه «عبده محمد محمد بدوي»، لأسرة ريفية متواضعة، تعلم في المدرسة الابتدائية مثل أبناء الفلاحين، والتحق بالأزهر الشريف ليحصل منه على الشهادة الثانوية، ويلتحق بكلية دار العلوم ويتخرج منها عام ١٩٤٥، ثم يحصل على الماجستير حول الشعر في السودان عام

١٩٦١، والدكتوراه عن الشعراء السود وخصائصهم الشعرية عام ١٩٦٩، ومنذ تخرجه حتى الآن وهو يتعامل مع الكلمة معلما في المدارس العامة، ومسئولاً في أكثر جهة ثقافية وصحفية، ثم أستاذًا جامعيًا في عين شمس وأم درمان والكويت والإمارات.

وكانت فترة إدارته «للرسالة» و «الثقافة» -الإصدار الثاني- من أخصب فترات حياته، فقد أتيح له أن يطرح العديد من القضايا الأدبية والفكرية، وأن يشارك في أكثر من معركة أدبية، كانت «الرسالة» و «الثقافة» مسرحًا لها، ولعل أبرز هذه المعارك، المعركة التي كان طرفها الأشهر، العلامة الراحل، «محمود شاكر»، وطرفها الآخر «لويس عوض»، ودارت حول أبي العلاء المعري وكتاباته، وظلت المعركة ثلاثة وثلاثين أسبوعًا، تحشد كل أسبوع مقالة طويلة على صفحات «الرسالة» يكتبها «شاكر»، (جمعها فيما بعد في كتاب ضخم بعنوان: أباطيل وأسمار)، وانتهت المعركة بانتصار «لويس عوض» حيث استطاع أن يغلق مجلات وزارة الثقافة جميعًا، باستثناء مجلة «المجلة» وكان الإغلاق فرصة لعبده بدوي كي يتفرغ بعد عام ١٩٦٥، الذي تم فيه الإغلاق، لإنجاز رسالة الدكتوراه، ويتحول مساره من موظف بلا عمل ولا مكتب ولا مقعد في وزارة الثقافة، إلى أستاذ جامعي، يقضي كثيرًا من سنوات عمره خارج البلاد في السودان والكويت والإمارات. ولكنه ظل مع ذلك يكتب الشعر، والدراسة الأدبية، ويتحدث في الإذاعة عن إفريقية وتاريخها الوثني والإسلامي.

في موقفه الحضاري، يأخذ «عبده بدوي» موقفًا إسلاميًا وسطًا، يدرك مواطن القوة في تراثنا، ويعلم قيمتها جيدًا، وأيضا يدرك المواطن القلقة والضعيفة، ويؤمن بأن الواقع يفرض علينا أن ننطلق من مناطق الضوء في حضارتنا، ونستفيد بالمعطيات الإيجابية للحضارة الإنسانية الراهنة، ولعل كتابه المهم: «حضارتنا بين العراق والتفتح»، خير من يعبر عن توجهه الفكري

والإنساني.

لقد أصدر «عبده بدوي» العشرات من الكتب والدراسات التي تؤصل لهذا الموقف الحضاري، أو تصب فيه، حتى لو كانت متخصصة في مجالات أخرى، ومنها:

في الشعر والشعراء، دراسات تطبيقية، الشعراء السود والحضارة، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، دراسات في النص الشعري، قضايا حول الشعر، طه حسين وقضية الشعر، العقاد وقضية الشعر، شعر إسماعيل صبري، نظرات في الشعر الحديث.....

ومن دواوينه :

شعبي المنتصر، باقة نور، دقات فوق الليل، كلمات غضبي، لا مكان للقمر، السيف والوردة، وقد أصدرت هيئة الكتاب أعماله الشعرية في مجلدين عام ١٩٩٩، وفيها «أوبرا الأرض العالية، والقصيد السمفوني «محمد».

حصل عبده بدوي على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر عام ١٩٧٧، وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٨، كما حصل على جائزة مؤسسة يماني الثقافية (إبداع الشعر) عام ١٩٩٧، وأصدرت عنه جامعة الكويت كتابًا تذكاريًا سنة ٢٠٠٠. شارك بالكتابة فيه عدد من زملائه وأصدقائه وتلاميذه، تناولوا شعره وأدبه.

ومع النجاحات التي أحرزها في مجال الشعر والكتابة، فإن تجارب الابتلاء التي تعرض لها كثيرة، ولعل أخطرها محنة غزو الكويت عام ١٩٩٠، حيث رأى العسكر يدمرون كل شيء، ويضطر إلى الخروج بأسرته تاركا مسكنه ومكتبته ومتاعه للنهب والضياع.

وفي الوقت نفسه يقطع الصحراء بسيارته حتى تلقّتْهُ طائرة نقل عسكرية، وتحضره إلى الوطن الذي تناساه، وهو في محنته، يصارع المرض والأحزان، حتى لقي ربه راضيا مرضيا في مساء الخميس ٢٧/ ١/ ٢٠٠٥. رحمه الله.

علي عزت بيجوفيتش.. رئيس البوسنة الراحل

من رائحة السلف الصالح

في عز البرد والأمطار، كان أكثر من مائة ألف مسلم يغطون شوارع«سراييفو»، ويحملون الأعلام واللافتات وباقات الورد في وداع زعيمهم المحبوب وقائدهم المجاهد ورئيس جمهوريتهم السابق: «علي عزت بيجوفيتش». لم يكن الوداع لمجرد أنه زعيم أو قائد أو رئيس، ولكنه كان لشخص ارتبطت به القلوب والأفئدة على مدى نصف قرن أو يزيد في بلد ظل أسيرًا في قبضة القوى الظالمة الملحدة التي صادرت حريته ودينه وكرامته، ولم تكتف بذلك بل سفحت دماء أبنائه ودفنت جثثهم في قبور جماعية استفزت الأحرار وأصحاب الضمير في كل مكان على ظهر الأرض.

كان «علي عزت بيجوفيتش» المولود في عام ١٩٢٥ بشمال البوسنة من طلائع المقاومة التي واجهت الاحتلال الشيوعي الذي ضم البوسنة والهرسك ودولاً أخرى إلى صربيا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان مصير الرجل هو غيابات السجون التي قضى فيها زهرة شبابه. فقد أودعه النظام الشيوعي في يوغوسلافيا (المنهارة) السجن أولاً لمدة ثلاث سنوات عام ١٩٤٦ بسبب نشاطاته الإسلامية، ثم اعتقله النظام الشيوعي مرة أخرى عام ١٩٨٣ بتهمة توزيع منشورات إسلامية، وحكم عليه بالسجن ١٤ عامًا، ولكن أفرج عنه بعد خمس سنوات عقب سقوط الأنظمة الشيوعية في شرق أوربة عامي ١٩٨٩،

١٩٩٠م.

حين خرج «علي عزت بيجوفيتش» إلى الحرية مرة أخرى، واصل مسيرة العمل والنشاط من أجل تحرير المسلمين البوسنيين ونهضتهم على أسس إسلامية، ولكن الصليبية الصربية الاستعمارية في صربيا قامت بمساعدة صرب البوسنة بالسلاح وشاركت معهم في القتال لتطهير صربيا الكبرى (التي يحلمون بإنشائها) من المسلمين، وشجعتهم دول الغرب الاستعمارية الصليبية على القيام بمذابحهم ضد المسلمين البوسنيين.

كان «بيجوفيتش» قد أسس عقب تفكك الاتحاد اليوغسلافي «حزب العمل الديمقراطي» وهو حزب إسلامي معتدل، وقاده في الانتخابات العامة التي جرت في البوسنة والهرسك عام ١٩٩٠ وفاز بيجوفيتش بعضوية مجلس الرئاسة السباعي الذي حكم البوسنة، وكان هذا المجلس يتكون من عضوين عن كل من المسلمين والصرب والكروات، بالإضافة إلى عضو واحد يمثل بقية الأقليات.

في أثناء الرئاسة حاول الرئيس الراحل أن يحافظ على التعددية العرقية في البلاد من خلال النظام الديمقراطي، ولكن حلم الصليبيين بتنظيف أوروبة من المسلمين جعلهم يختلقون الذرائع والأسباب، ومنها محاولة استقلال صرب البوسنة بدولة خاصة بهم تنضم بعد ذلك إلى صربيا، وفي عام ١٩٩١ بدأ الصرب البوسنيون بمعاونة الجيش في سحق المسلمين (غير المسلحين) واستخدام ما عرف بسياسة التطهير العرقي، حيث قتلت ودمرت في القرى والمدن الإسلامية، وطردت من بقي حيا، واستمرت عملية السحق الصربي التي شارك فيها الكروات في بعض فترات الحرب، وكادت البوسنة تمحى من الوجود، لولا استبسال البوسنيين بقيادة «علي عزت بيجوفيتش» الذي قاد المعارك السياسية مع قادة المعارك العسكرية المسلمين باقتدار، في ظل ظروف غير مؤاتية على الإطلاق.. كانت المعارك العسكرية والسياسية تجري بين كر

وفر، وبعد أربع سنوات من المذابح التي قام بها الصرب والعناء الذي عاشه المسلمون البوسنيون، استطاع مقاتلو البوسنة أن يحرروا معظم أراضيهم، وتدخلت الدول الصليبية الاستعمارية في النهاية لتفرض اتفاقا فيه كثير من السلبيات عرف باتفاق «دايتون عام ١٩٩٥»، ولكنه كان أفضل الحلول المتاحة التي أتاحت للبوسنيين التقاط الأنفاس، واستعادة زمام المبادرة لعودة بعض اللاجئين الذين رحلوا إلى الدول الأوربية وغيرها، ومحاولة إعادة بناء ما تهدم في دولة البوسنة المسلمة.

لقد أدى اتفاق «دايتون» إلى قيام اتحاد بين المسلمين والكروات يسيطر على معظم الأراضي في دولة البوسنة والهرسك، وبداخله كيان صربي يتمتع بحكم ذاتي يطلق عليه «جمهورية صربستا»! وصار للدولة الجديدة التي تضم المسلمين والكروات والصرب رئاسة ثلاثية، كان «علي عزت بيجوفيتش» عضوا فيها حتى عام ٢٠٠٠ حيث استقال بسبب ظروفه الصحية.

إن رحلة الرجل الإنسانية والفكرية لا تقل خصوبة عن رحلته السياسية والقيادية، فهو على المستوى الإنساني رجل بسيط شبه زاهد كان يعيش حتى وفاته في شقة متواضعة بأحد بيوت سراييفو، وكانت ترعاه إحدى بناته بعد وفاة زوجته. ولم يعرف عن الرجل حب السلطة أو الوجاهة أو العجرفة. وقد حظي باحترام البوسنيين من جميع التيارات الإسلامية وغير الإسلامية، وظل حتى وفاته يمثل الأب الروحي للبوسنيين الذين أحبوه بصدق، لأنه أخلص في عمله وصدق في قوله، وكان يصارح شعبه بالحقائق مهما كانت مرارتها وغضاضتها، فقد كان يرى أن الصراحة هي الطريق الصحيح الذي يجب على السياسي المسلم أن يسلكه في مسيرته الصعبة والمعقدة، بالإضافة إلى كل ما سبق فقد كان نظيف اليد واللسان، ما عرف عنه انحراف مادي أو سوء أدب في تعبيره أو كلامه... وكان في كل الأحوال يستلهم أخلاق الإسلام في موازناته

ومناوراته من أجل مصلحة المسلمين. لقد كان «العقل» أو استخدام العقل مفتاحًا لشخصيته الإنسانية والسياسية معًا، مع الصبر في مواجهة المحن والكوارث التي تزلزل كل جبل أشم، ولكن العقل حين يجتمع إلى الصبر، فإن المعادلة تكون مثمرة بكل تأكيد وهو ما وظفه باقتدار في مراحل حياته السياسية وخاصة مرحلة السحق الصليبي الصربي، فاستطاعت البوسنة أن تولد على يديه من جديد. وهو ما أكده زعماء ورؤساء ارتبطوا به وعرفوه واقتربوا منه.

فقد قال الرئيسي الأمريكي السابق «بيل كلينتون»:

«لو لم يكن عزت بيجوفيتش لما كانت البوسنة والهرسك حرة مستقلة» كما قال: إنه من الشخصيات التاريخية التي ستترك بصماتها واضحة على مستقبل منطق البلقان».

أما رئيس وزراء تركيا، وزعيم حزب العدالة والتنمية (الإسلامي) «رجب الطيب أردوغان»؛ فقد قال: «إن عزت بيجوفيتش يحظى باحترام وتقدير واسع داخل تركيا والعالم الإسلامي، وإنه أحد الرموز التي أستهدى بها في حياتي».

وقال الرئيس البوسني الحالي: «سليمان تايهتيش»:

«عزت بيجوفيتش سيعيش في وجدان المسلمين، وأفضاله على البوسنة والمسلمين فيها لن تنسى أبدًا».

وقال الشيخ «مصطفى تيسيريتش» رئيس علماء البوسنة والهرسك:

«إن الله أرسل إلينا علي عزت بيجوفيتش ليعيد للمسلمين كيانهم وللبوسنة حريتها».

ولعل الرحلة الفكرية لعلي عزت بيجوفيتش، أهم -في نظري- من رحلته السياسية مع أهمية هذه الأخيرة وخطورتها، فقد رأى الإسلام وقدمه بمنظور علمي، ولغة يفهمها الأوربيون ويتأثرون بها، وكان كتابه «منهاج الإسلام» أو

البيان الإسلامي، مع كتابه الآخر الذي ضم حديثا عن الإسلام وقضايا العصر، من أبرز عطائه الفكري والثقافي والدعوي، وفيهما شرح الإسلام والعقيدة من خلال أسلوب مبسط وسهل مدعوم بالأدلة والإحصاءات والتسلسل المنطقي، جعل الأوربيين يقبلون على هذا الكتاب إقبالاً كبيرًا، وجعل القوى المتعصبة في بعض البلاد الأوربية (فرنسا تحديدا) تصادر الكتاب وتحظر توزيعه، لأنها عرفت تأثيره القوي على مواطنيها غير المسلمين. لقد تمنيت أن ينشر هذا الكتاب في البلاد العربية طبعة شعبية متاحة للبسطاء من القراء، كي يدركوا عظمة الإسلام وسر قوته دون إنشائيات فارغة ممجوجة، ودون خطب جوفاء باردة، ليس فيها حرارة الإيمان ولا صدق العاطفة الإسلامية.!

لقد كان ما كتبه «علي عزت بيجوفيتش» حول الإسلام مسوغًا لمنحه «جائزة الملك فيصل» العالمية في مجال خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية وقد سلمت إليه في حفل مهيب تقديرًا لدوره ومكانته.

وقد عبرت –بتواضع– عن حبي له وتقديري حي أهديت له كتابي المتواضع: «الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني» الذي أصدرته عام ١٩٩٤، وبعثت إليه بنسخة عن طريق سفارة بلاده، ولا أدري أوصلته أم لا؟

في التاسع عشر من أكتوبر (٢٠٠٣م، انتقلت روح «علي عزت بيجوفيتش» إلى الرفيق الأعلى، بعد أن نقل إلى المستشفى المركزي بسراييفو في العاشر من سبتمبر قبل وفاته بأربعين يومًا، وتوفي عن عمر يناهز الثامنة والسبعين بعد أن أغمى عليه وهو في طريقه إلى فراشه داخل منزله بمنطقة «كوشوفو» في العاصمة البوسنية «سراييفو» مما أدى إلى حدوث كسور في أربعة من أضلاعه.

كما كان الرئيس البوسني الراحل يعاني من اضطرابات في القلب أيضا، مما

جعله يقضي فترة في المستشفى، ويزوره بعض القادة والزعماء العالميين.

وإذا كان عضو الرئاسة الصربي في البوسنة والهرسك، قد عارض إعلان الحداد رسميا على الرئيس الراحل، تعبيرا عن تعصبه الصليبي، فإن «بيجوفيتش» يعيش في قلوب الملايين من المسلمين، ومن أصحاب الضمائر الإنسانية الحية في كل مكان.

علي عشري زايد

(إخلاص عالم ... وتميّز ناقد)

لم تكن علاقتي به مجرد علاقة عابرة بين تلميذ وأستاذ، فقد كانت أكبر من ذلك بكثير، حين رأيت فيه نموذج «الأستاذ» الذي تتوفر فيه عناصر الأستاذية الحقيقية من ورع وإخلاص وتواضع، وبحث ودأب واطلاع، ثم رفق وهدوء وسكينة، نادرًا ما تعثر عليها في زمن الزحام والأنانية والبحث عن المنفعة بأية وسيلة!

كان «علي عشري زايد» مثالاً للأستاذ الجامعي الذي شغلته «القيمة» قبل «الثمن»، واستغرقته «المعرفة» قبل «الوجاهة» و «التدريس» قبل «المناصب»، فكان محبوبًا من طلابه وزملائه، وكان سمته الهادئ الوديع تحكمه ابتسامة مشرقة، حتى في أشد حالات معاناته، كأنه يكافئ بابتسامته كل من يقابله أو يلتقي به من الطلاب والأساتذة، ولا أنسى مقولة قالها لي أحد الأساتذة من زملائه ونحن نتحدث عنه ذات يوم قبل سنوات «إنه الصورة المضيئة النقية مني» أو إنه «صورتي المضيئة النقية»، لا أذكر العبارة بدقة، ولكن هذا مضمونها.

أشرف على رسالتي للماجستير في قسم «البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن» بكلية دار العلوم، وكنت أيامها أعمل خارج البلاد، فلقيت منه تعاونًا غير محدود، لا يصنعه أخ مع أخيه، وتوجيها كريمًا يليق بأستاذ في مثل علمه ومكانته، وتمنيت أن تكون الدكتوراه تحت إشرافه، ولكنه بابتسامته المشرقة، أخبرني أنه آن الأوان ليشارك بجهد المقل في خدمة الدين واللغة على أرض

الباكستان، وكانت هناك جامعة وليدة أنشأتها بعض الدول العربية باسم الجامعة الإسلامية، وتولت مصر تزويدها بطاقم من أفضل الأساتذة، وظل هناك لمدة عشر سنوات، لم أره فيها، وإن كانت المراسلات بيننا لم تنقطع، حتى عاد إلى دار العلوم، وفي السنوات الأخيرة شكا إلي متاعب في عينيه ومتاعب أخرى، تفاقمت، حتى كان نعيه بالصحف يوم الثلاثاء (٢٩/ ٤/ ٢٠٠٣).

مثل كل الأحبة، لم أستطع أن أراه وهو يعاني، ولكن قلبي كان يتمزق مع ما أسمعه عن تطورات مرضه، وقبل أسابيع كان أحد الزملاء يقترح أن ندعوه ليناقش رسالة جامعية في كليتنا، ولكنني صمت، فأعاد الزميل اقتراحه، وراح يقدم حيثيات الدعوة ظنا منه بأني لا أعرفه، فقلت له: لقد كان أستاذي في دار العلوم، والمشرف على رسالتي للماجستير، وأطلب منك أن تسأل الله له الشفاء. فوجم الزميل، ثم رفع يديه إلى السماء.

مثل كل عالم متواضع، كان يرفض الدعاية والبهرجة، ومن ثم، كانت مشاركاته في النشاط الأدبي والثقافي، هادئة عميقة، ومن المفارقات أن كثيرًا من النقاد والكتاب استفادوا بأفكاره وكتاباته، ولم يشيروا إليه، فهو –على حد علمي– أول من قدم شعراء معاصرين من الشباب أبرزهم الشاعر الراحل «أمل دنقل» حيث قدمه تقديما نقديًا أصيلاً، وأشار إلى موهبته الواعدة، ولكن من يتحدثون عن أمل أو غيره لا يذكرون ذلك، وإن أشاروا عرضًا إلى ما كتبه ضمن إشارات أخرى.

كان كتابه «استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر» أول دراسة فيما أتصور تفتح الباب واسعًا عريضًا أمام عشرات الدراسات الأكاديمية والنقدية حول الشخصيات التراثية في شعرنا المعاصر، وتوجه الشعراء المعاصرين إلى كنز ثمين يستثمرونه في قصائدهم ومسرحهم الشعري، فهذا التراث لا يخذل من يعود إليه مهموما أو مسرورا، مهزومًا أو منصورًا، حرا أو

مقهورًا، ففيه ما يهدهد الهموم وما يجسد السرور، وما يواسي في الهزيمة وما يتغنى بالنصر وما يمجد الحرية وما يتمرد على القهر.

لقد أتاحت الدراسة في الخارج لعلي عشري زايد، أن يرى القضايا الأدبية والنقدية خاصة، والحضارية عامة، رؤية موضوعية، تتجاوز الانبهار والفتنة، إلى التعرف على العناصر الإيجابية والأخرى السلبية، سواء في تراثنا أو في ثقافة الآخر. ولعل هذا ما جعله يسبق إلى إدراك التمثل الخاطئ لبعض شعرائنا لما صنعه بعض شعراء الغرب (إليوت مثلاً)، وتهافت البعض الآخر على التراث الإغريقي.. وفي الوقت ذاته كان سباقًا إلى التحذير من المزالق التي تهدد استخدام التراث استخدامًا صحيحا..

لقد أخلص الراحل الكريم لدراسة النقد الأدبي، فقدم العديد من الدراسات المهمة، أبرزها دراسته حول موسيقى الشعر الحر، وفضلاً عن ذلك، فقد كان لا يتوانى عن المشاركة بالكتابة في الدوريات النقدية وحضور الندوات والمؤتمرات التي تسهم في إثراء النشاط الأدبي والحركة الثقافية.

أذكر في منتصف السبعينيات، عندما صدرت مجلة «الشعر» وكنت أشارك في تحرير بعض أبوابها، أن طلبت منه أن يكتب تقويمًا لقصائد «العدد الماضي» وخاصة قصائد الشباب، فلم يضن بالكتابة، واحتشد لقصائد الشباب- الذين صاروا اليوم أو صار بعضهم من الأعلام- وكتب عنهم كتابة جادة وعميقة، صوبت مسيرة كثير منهم، وربطت بينه وبينهم بصداقة طيبة.

لقد جاء رحيل «علي عشري زايد» ليمثل خسارة فادحة للغة العربية وآدابها، بعد أن فقدت في أسابيع قليلة نفرًا من أعلامها وأساتذتها في دار العلوم وطنطا: أحمد مختار عمر، عبد الواحد علام، مصطفى علي عمر، محمود الحسيني المرسي.... رحم الله الجميع وعوض اللغة العربية خير العوض، وإنا لله وإنا إليه راجعون...

عمر التلمساني

الرجل القدوة

لا أزعم أنني سأضيف جديدًا إلى ما كتب حول «عمر التلمساني» المسلم الصابر المحتسب، ولكني أزعم أن تقديم الرجل بوصفه قدوة هاجسٍ يشغلني. بعد أن أصبح الذين يعنيهم تنوير هذا الشعب يكتفون بتقديم نماذج هامشية أو تحت مستوى الشبهات. لتكون الأسوة التي يحتذيها أبناء الوطن وبناته.

وبالطبع فإنه من الحلم المستحيل أو العبث غير المعقول أن نطالب وزير غسيل المخ المصري أو وزير الإعلام المصري أن يقدم «عمر التلمساني» أنموذجًا وقدوة لشبابنا.. فهذا الوزير أو بمعنى أدق أجهزته الإعلامية لا يعنيها أمثال التلمساني مهما كان مستواهم الفكري والسلوكي النادر. ولكن الذي يعنيها – بلا ريب– أن تقدم طوائف الفنانين ولاعبي كرة القدم ورعاة البقر ليكونوا أمثلة يقلدها أبناؤنا ولتكن النتيجة ما تكون، ولعل الناس يذكرون ما جرى منذ أسابيع حين مات بعضهم. فأفطرنا وتغدينا وتعشينا ونمنا وأصبحنا على اسم هذا البعض الراحل، ليس في التلفزة فحسب، بل في جميع موجات الإذاعة، فضلاً عن الصفحات العراض الطوال في الصحف الحكومية.

ولا أعتقد أن مرحلة حرجة من حياة الوطن أحوج ما تكون إلى تقديم عمر التلمساني قدوة مثل هذه الفترة التي سادت فيها أخلاقيات الانتهازيين المرتشين والوصوليين والمنافقين والمصالح المتبادلة.. فالرجل –يرحمه الله– كان يمثل صورة مضيئة للمسلم الذي ظل طوال حياته «١٩٠٤ – ١٩٨٦م» يطمح

إلى المثال الحي والقيم المضيئة والأفكار الخيرة. ويتحمّل في سبيل ذلك كل قهر وعسف وتضييق. ويظل ثابتًا على منهجه لا يتغير ولا يتراضخ ولا يداهن. إن هذه النوعية من الرجال نادرة وقليلة في مثل زماننا الصعب وتقديمها للأمة يعني أن هناك أملاً في إنقاذ الأمة من الفساد والمفسدين، وصناعة جيل يملك مفاتيح المستقبل حقًا وصدقًا.

وعمر التلمساني -قبل ذلك- يمثل المسلم الباحث عن الحقيقة منذ بدء نشاطه في المجال الإسلامي.. والباحث عن الحقيقة لا يتردد في العدول عن الخطأ إلى الصواب، ولا يخجل من ذلك مهما كانت مبررات الخجل، وقد عدل «عمر التلمساني عن أكثر من فكرة، حتى أصبح بحق الداعية المثالي. بل الداعية الذي يتسع صدره للحوار مع كافة الخصوم بالحكمة والموعظة الحسنة، مما كان له التأثير الفعال على محاوريه. ولعل الذين جاوروه في المستشفى في أثناء اعتقاله الأخير «سبتمبر ١٩٨١» أول من أدرك قيمة الرجل وقدرته على التأثير. ومعظمهم كان المخالفين فكريًا. وقد أخذ بعضهم يراجع نفسه وفكره.

إن تقديم «عمر التلمساني» داعية مسلمًا، يدعو بالرفق واللين، والثقافة والحجة، سوف يوفر على الأمة الكثير من العناء الذي تجده في نماذج لا تعرف اللين ولا تتصل بالثقافة والحجة من قريب أو من بعيد. ولعل ما كتبه الرجل في حياته من كتب ورسائل يعبر عن خلق رفيع يقدّم المثل الراقي، والنموذج الساطع. وما كتبه عن سيدنا عمر بن الخطاب، والإمام الشهيد حسن البنا -يصب في هذا الإطار. كذلك فإن نظرته الواعية إلى ما يحيط بالإسلام من مؤامرات جعلته يدرك ضرورة المواجهة مع الدعاوي الظالمة. ولعل رسالتيه حول الحكومة الدينية ومكانة المرأة في الإسلام خير معبر عن هذا التوجيه الواعي.

وفي سلوك عمر التلمساني. ما يؤكد على تواضع الرجل وزهده وعفته. ولم يتأثر الرجل كثيرًا بما أثاره ضده بعض المرجفين من أتباع النظريات

الوضعية. وهذا كان شأنه دائمًا حتى مع خصومه السياسيين، بل الذين آذوه واعتقلوه، وجعلوه يقضي زهرة عمره الجميل وراء الأسوار، ويلاحظ أنه لم يشر إلى ما لاقاه من تعذيب واضطهاد داخل المعتقلات. بل تحدث بصيغة عامة عما تلافيه الجموع المظلومة. وحين أراد أن يكتب عن «عبد الناصر» آثر أن ينقل ما كتبه الناس عنه. وكذلك عندما كتب عن «السادات» فقد قدم عناوين الصحف وفقرات منها، تعبر وتشرح المنهج الذي كان يسير عليه السادات تاركًا الاستنتاج والحكم للقارئ..

وهذا المنهج يتسق تمامًا مع الموقف الشهير الذي وقفه في مواجهة السادات بالإسماعيلية، عندما شكاه إلى الله. ورفض أن يسحب هذه الشكوى بوصفها مقدمة إلى حاكم عادل لا يظلم أحدًا، إن هذا الموقف الذي اتسم بالشجاعة والنبل، يذكرنا بموقف سابق وقفه أحمد عرابي، في مطلع القرن الرابع عشر الهجري أمام الخديو توفيق. مع الفارق. الذي يجعل من موقف التلمساني في عهد أعلن وزيره عن إخراج الناس «بلابيص» يمثل أسطورة مثيرة، ولكنه بالنسبة لمسلم مثل عمر التلمساني، ليس مثيرًا وليس أسطوريًا.. إنه نابع عن يقين إسلامي داخلي بضرورة المواجهة مع الباطل وإن علا في الأرض، وتزيا بزي الفراعنة..

ولعل من المفيد بالنسبة للذين تشغلهم قضية الخلافة في جمعية الإخوان المسلمين، أن يشاركوا معنا في الإلحاح على تقديم الرجل قدوة وأنموذجًا لأجيالنا التعسة التي حجبت عنها النماذج المضيئة والقدوة الحسنة، وأن يقنعوا من يعنيهم الأمر أن الرجل مسلم مصري حمل كلمة الله. ولم يهن تحت وطأة القيود والسدود، ولم يستسلم لعصف الطغاة والبغاة.. وصدق الله إذ يقول:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب: ٢٣ – رحم الله التلمساني وعفا عنه.

كامل أمين

شاعر الملاحم الإسلامية

قبل ربع قرن تقريبًا رأيت رجلاً أبيض الشعر، قصير القامة، متواضع الهيئة، يدخل مكتب رئيس التحرير لإحدى المجلات الأدبية، ويتحدث حول أعماله الشعرية، وقصائده التي يرشحها للنشر، كان متحمسًا حماسة الشباب، مع أنه كان في ذلك الحين يبدو قد جاوز الستين بسنوات. عرفت أن الرجل هو الشاعر «كامل أمين» واسمه الكامل: «كامل أمين محمد»، وكان له موقف من الحياة والمجتمع يقوم على التصور الإسلامي، ويرفض التصورات العلمانية والماركسية التي كانت سائدة في الواقع الثقافي آنئذ. وهو ما جعل القوم المهيمنين على الصفحات الأدبية في الصحف، والمنابر الثقافية ودور النشر الرسمية، يقفون منه موقفًا سلبيًا، ويرفضون نشر إنتاجه الشعري والأدبي، وفي مرحلة الرئيس السادات أتيح له أن يجد فرصة مناسبة لنشر بعض أعماله سواء في الصحف أو المجلات أو دار النشر الرسمية، وبعد عودة الماركسيين والعلمانيين إلى الهيمنة مرة أخرى حجب عن القراء وعن الساحة الأدبية بصورة شبه كاملة.

وقبيل وفاته بأسابيع اشتد به المرض، فتوسطت له كاتبة إسلامية عند بعض ذوي النفوذ من مثقفي السلطة وكتابها كي يعالج لدى المستشفيات المتخصصة على نفقة الدولة، ووعد هؤلاء بعلاجه، ولكن مر الوقت والمرض يرعى جسد الشاعر العجوز الفقير، وتجاهل ذوو النفوذ من مثقفي السلطة وكتابها أمر

الرجل، حتى قضى نحبه، وذهب إلى ربه راضيا مرضيًا دون أن تكلف الصحف الرسمية وغير الرسمية نفسها عناء نشر خبر في سطرين عنه، ولم تستطع أسرته أن تنشر نعيًا له!! وبالطبع لم يكتب أحد عنه شيئًا، ولا مقالا، ولا تحقيقًا، ولا متابعة، مما يحظى به صغار الأدباء اليساريين والعلمانيين عندما يصابون بالكحة أو الأنفلونزا!!.

وسمعت أن الكاتبة الإسلامية التي توسطت من أجل علاج شاعرنا الراحل، أعادت الكرة مرة أخرى من أجل نشر إنتاجه الشعري والأدبي الضخم، ولكن القوم لن يسمعوا لها بمعنى التنفيذ، ولن يستجيبوا لرجاءاتها بمعنى التنفيذ أيضًا، لسبب بسيط جدًا، وهو أن كامل أمين «ليس يساريا ولا علمانيا»، وقبل ذلك وبعده، فهو يعبر عن تصور إسلامي يرفضه اليساريون والعلمانيون جميعًا!

ولد «كامل أمين»؛ في مدينة طنطا، عاصمة مديرية الغؤادية (الغربية حاليا): في الخامس من يولية سنة ١٩١٥ ميلادية، وقد تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية أولاً، وواصل دراسته بعدئذ في المدارس المصرية، واشتغل موظفًا في وزارة الري (الأشغال)، وعاش حياة متواضعة حتى أحيل على التقاعد، وقد منح تفرغا لبعض الوقت من وزارة الثقافة.

نشر الشاعر قصائده في المجلات الأدبية والإسلامية، وكانت «الرسالة» تتزين بقصائده، ومطولاته، وفي المرحلة الساداتية كان ينشر في «الأهرام» و «الثقافة» و «الهلال» وغيرها، واتسم شعره بقوة السبك، ووضوح العبارة، وقرب الألفاظ، وإيثار الموضوع الإسلامي والدفاع عن الفكرة الإسلامية في مواجهة خصومها.

ويعد «كامل أمين» من الشعراء البناة للملحمة في الشعر العربي الحديث. وكما نعلم فالملحمة لم تكن معروفة في شعرنا العربي الذي تغلب عليه صفة

الغنائية، أي المقطوعات والقصائد التي يعالج من خلالها الشاعر موضوعه أو تجربته. الملحمية كانت من سمات الشعر اليوناني القديم، والشعر الروماني القديم أيضًا، والشعر عند اليونان والرومان كان وسيلة للتعبير المسرحي والملحمي، بحكم معتقداتهم وتصوراتهم، حيث كانت تقوم على الوثنية وتعدد الآلهة، وصراع هذه الآلهة مع البشر وخاصة أبطال وقادة اليونان والرومان، لقد امتزجت الوثنية عند هؤلاء بالأسطورة والخرافة، وهو ما عبر عنه شعراء الإغريق والرومان في أعمال ملحمية شهيرة ترجمت إلى معظم لغات العالم ومنها: أجاممنون، ألكترا، حاملات القرابين..

ومع أن العرب قبل الإسلام كانوا وثنيين، وكانت لهم أساطيرهم وخرافاتهم إلا إن طبيعتهم وبيئتهم ورحلتهم في المكان والزمان، جعلتهم ينتمون إلى القصيدة الغنائية دون المسرح والملحمة، وفي بدايات عصر النهضة، سعى «محب الدين الخطيب» ليكون للعرب والمسلمين ملاحمهم التي تقوم على تاريخهم الحقيقي وفيه من الصراع بين الحق والباطل، ما يفوق أساطير اليونان والرومان وخيالاتهم. وقد ذهب إلى «أحمد شوقي» أشهر شعراء العصر الحديث أنئذ، وعرض عليه فكرة نظم الملحمة إسلاميا، ولكن «شوقي» صمت ولم يعلن قبوله أو رفضه، فذهب الرجل إلى «أحمد محرم» وعرض عليه الفكرة، فقبلها على الفور، وبدأ في النظم ونشر الملحمة (الإلياذة الإسلامية أو مجد الإسلام)، في مجلة «الفتح»، على أجزاء، وكان محرم بذلك أول من راد هذا الطريق وعبده لغيره من الشعراء العرب المحدثين. المفارقة أن «شوقي» فأجأ الناس بعد ظهور إلياذة محرم، بنشر «مطولته» -ولا أقول ملحمته- المعروفة باسم دول العرب وعظماء الإسلام» ترصد حركة الإسلام منذ فجر الدعوة حتى أيامه، ولكن لم تكن لها قوة ملحمة «محرم».

جاء «كامل أمين» ليحقق أول ملحمة عربية إسلامية مكتملة فنيا، ولم

يكتف بملحمة واحدة فقط، ولكنه كتب اكثر من ملحمة، وساعده على ذلك قدرته الكبيرة على النظم وطواعية اللغة، ودراسته الجيدة للسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

كانت أول ملحمة يكتبها هي ملحمة «السموات السبع» عام ١٩٥٧، وكانت بداية متواضعة من حيث المستوى الفني، تلتها ملحمة «عين جالوت»، وإني لأعدّها أعظم ملاحمه على الإطلاق، ليس لضخامتها أو تعبيرها عن معركة خالدة في حياة الإسلام والمسلمين حيث كان الانتصار كبيرًا ورائعًا وفريدًا على التتار الغزاة، ولكن لأنها استطاعت أن تبني فنيًا لحظة من أروع لحظات التاريخ الإسلامي، وتثبت بحق أن تراثنا التاريخي فيه ثروة هائلة من الأحداث والوقائع المبهرة التي تفوق خيال اليونان وأساطيرهم كما تفوق ما لدى نظرائهم من الرومان. ومع أن الشاعر أنجز هذه الملحمة عام ١٩٦٨ (العهد الناصري)، فإنها لم تنشر إلا عام ١٩٧٥ (المرحلة الساداتية).

تابع الشاعر كتابة ملاحمه التاريخية، فكتب ملحمة «القادسية» عام ١٩٧٨ عن المعركة العظيمة التي خاضها المسلمون ضد الفرس، وانتصروا عليهم فيها.

هناك ملحمة أخرى هي الملحمة «المحمدية» وكتبها عام ١٩٧٩، وترصد السيرة النبوية، وقد تناولتها في كتابي «محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي الحديث» مع غيرها من الملاحم، وإن كنت قد ركزت عليها في التناول.

إن «كامل أمين» في احتشاده لكتابة الملحمة التاريخية الإسلامية ليعد صاحب جهد فريد وكبير ونادر، نقل الشعر العربي من الغنائية إلى الملحمية، وأغناه بهذا التراث، فضلاً عن توظيفه في ميدان جديد يبعده عن كثير من السلبيات التي تصاحب الشعر الغنائي.

ومع ذلك فإن «كامل أمين» أصدر مجموعة من الدواوين التي تضم قصائد غنائية معظمها يدور حول الدفاع عن الإسلام واستنهاض الأمة وشحذ عزيمتها

لمواجهة المحن والأزمات والصعاب والتغلب عليها...

أصدر عام ١٩٤٧ ديوانه «نشيد الخلود» وفي عام ١٩٦٤ أصدر ديوانه «المشاعل»، وأصدر عام ١٩٧٩ ديوانيه «مصباح في الضباب» و «عندما يحرقون الشجر».

ومن المؤكد أن أوراقه التي تركها بعد رحيله، تضم – كما علمت –شعرًا كثيرًا لم ير النور، في ظل الحصار المفروض على التوجه الإسلامي بصفة عامة، سواء كان شعرًا ملحميا أو غنائيًا.

ويحسن أن نتناول نموذجا من شعره، قبل ختام هذه السطور، لعلنا نرى فيه بعض خصائص شعره. يقول في إحدى قصائده (صيحة مسلم) مدافعًا عن اللغة العربية (لغة الضاد) وربط الهجوم عليها بالمؤامرة الكبرى على الإسلام والمسلمين:

رحمة الله والسماء عليها ... كانت الضاد للكتاب لسانا

وبهما كان يهبط الروح جبريـ ... ـل ويوحي للمصطفى القرآنا

أيها المفلسون من كل شيء ... فارقوها وهرجوا في سوانا

كل تاريخنا ديون عليكم ... لا تظنوا استرداده إحسانا

كل وجه لكم بألف يهوذا ... ألف قابيل واغل في دمانا

قد تركنا كتابنا فضللنا ... بعد أن كان في الكتاب هدانا

أيها المسلمون في كل أرض ... التفوا حول دينكم حيث كانا

ولعل تسمية القصيدة «صيحة مسلم» تتناغم مع صوت الجهارة الذي يسودها، واللغة المباشرة التي لا تلجأ إلى المجاز كثيرًا، والتعبير القوي العميق عن القضية التي يدافع عنها، ويستبسل في سبيل المنافحة عن حماها. فهو مستمسك بالضاد التي صنعت مجدًا وكانت وسيلة الخير الإلهي الذي أصاب المسلمين وهو

القرآن الكريم. وبالإضافة إلى ذلك فهو يرى أن الضاد طريقنا لاستعادة المجد، وتقدم الصفوف. أما الذين يحاربون اللغة، فهم «يهوذا» و «قابيل». ويدلل على خسارة الأمة وضلالها بترك كتاب الله. ويوجه نداء إلى المسلمين كافة بالالتفاف حول الإسلام والتمسك به، لأنه طوق النجاة.

رحم الله «كامل أمين»، فقد استمسك بإيمانه وكرامته حتى مات في صمت (نوفمبر ٢٠٠٣)، مؤمنًا زاهدًا كريما.